

الفصل الاول

(في مبداء علم الطب)

خلق الانسان مخفوقاً بالاخطار والمهلك معروضاً للتأثر
بالفواعل الطبيعية مما يحدث في بنيته تغيراً تخرج به عن خطة
النظام القائم بحفظها وتديبرها ونمائها حريصاً على طلب النافع ودفع
الضار مولهاً بالبقاء مجتهداً في صيانة نفسه من العوارض التي
تطرا عليه محمولاً بالطبع على التوجع والتألم منقاداً بالضرورة
الى تجربة ما ظنه نافعا له فكان في مبداء امره طبيب نفسه
ثم لما كان اليقا بالطبع مفظوراً على رقة العواطف والشفقة على
المصابين والمتألمين صار بعد ذلك طبيب غيره فمبداء الطب اذا
الميل الغريزي في الانسان الى مزاوله الوسائط العلاجية واستعمالها
بمقتضى الشفقة والمناصحة وغايته هو شفاء الادواء احياناً وتخفيف
الآلام غالباً وتعزية المصاب دائماً

فبناءً عليه يكون علم الطب موجوداً مع خلق الانسان لانه
ضروري في صلاحه فهو من شؤون الفطرة السليمة بدليل كونه

(1) Introduction du dictionnaire de médecine et
de thérapeutique médicale et chirurgicale, par
E. Bouchut et A. Després

غريزيا في الحيوان على ما ثبت بالمشاهدات الكثيرة فترى السمانيير
 اذا حصل لها وجع في بطونها لحست الزيت من المصابيح وكذا
 تأكل المشب في الربيع وايس هو من اغذيتها فاذا اكلته ثقيأت
 والثعلب اذا ولد وخاف على اولاده من الذئب جعل حول وجاره
 من بصل العنصل فان الذئب اذا مشى على بصل العنصل اعتل
 وربما مات قال الرازي ان طائراً كثير الغذاء بالسماك يأخذ من
 ماء البحر بمنقاره ويحقن به نفسه اذا احتبس بطنه فيخرج منه
 الثقل ومنه تعلم الناس الحمتة . ومن المقرر ان الانسان عول في
 بدء امره على التجربة لمداواة نفسه وعلاج ابناء جنسه وتوسع
 بذلك حتى صار مجموع النتائج المحصلة من هذا القبيل على
 حوالي الايام وتعاقب المصور علماء واسع المجال بييد المال بما ضم
 اليه من التجربات وما استنبط فيه من طرق الاستقراء والاستدلال^٢

والاكثر الناس وانتشروا على وجه البسيطة وتفرقوا قبائل
 وشعوباً دعت الضرورة الى تخصيص فئة من كل قوم للسيطرة
 والزعامة مما فطنت على النظام وتقرير الاصول السياسية فنشأت مبادئ

(١) مقدمه كتاب الجوهر النفيس في شرح ارجوزة الشيخ

الرئيس الشيرازي

(٢) الطيب في الطب والاطباء ، للمؤلف

الرئاسة والانسان ميالاً بالطبع الى الاستقلال لا ينقاد الى غيره
 الا مكرهاً مدفوعاً بحكم الضرورة الى مغالبة الطواريء الطبيعية
 ومنازعة امثاله ليتسنى له البقاء منطوراً على حب السطة بما يتهيأ
 له من الوسائط فلا بدع ان اعتصمت هذه الفئة بالقوة التأييد
 رئاستها وتعلقت باسباب الاستبداد لتمكين سلطتها واتخذت من
 خوارق الطبيعة اسباباً تخلب عقول البسطاء للاقتياد لها والتسليم
 لاحكامها وليس شيء اقرب في اخناب العقول وتقرير الصلة بين
 الخالق والمخلوق من صناعة الشفاء وعليه قولهم الطيب واسطة
 بين الله والمرضى^٢ فأخص الطب بالكهان من قديم الزمان وكانوا
 يستنزلونه وحياً على زعمهم ويتخذونه ذريعة لاثبات دعوى المعجزات
 ويتبسون نوره من وراء الطبيعة . وكانت العامة يعظمونهم
 لما تخيلوا من كراماتهم ومقدرتهم التي تفوق طور العقول فانقادوا
 اليهم صاغرين ثم زاد وهمهم فألهوهم بعد موتهم وعبدوهم واقاموا
 لهم الهياكل والانصاب يقربون فيها القرابين والذبايح ويحرقون
 الجذور ومن خالف الجمهور في اعتقاده عدوه مجرمًا او كافراً فنكلا
 به تنكيلاً

(١) انظر مقدمه ابن خلدون

(٢) دعوة الاطباء صفحه ٣٢

وكانت الهياكل بمثابة بيوت المرضى يجتمعون إليها طلباً
للشفاء وكان لسدنتها السطة على النفوس والاجساد لا يعارضون
في ما يعملون لانهم اتخذوا الوحي والالهام دريعة لهم فكانوا يعالجون
بالمقابر على سبيل التجربة كما يتراى لهم ويقيدون ما تاملوه وجربوه
على جدران الهياكل ليستفيد به الخاف من ذريتهم لا ينجون
سره لسواهم ولا يستعلمه غيرهم . وهذا ما سماه الجالينوس بطب
الهياكل

وانحصر الطب في اليونان بال اسقليپس وهو عندهم إله الصحة
والطب نشأ القول بألوهيته في تساليا مسقط رأسه على ما
ادّعوا ولهم بشأنه قصص خرافية نهدّها من اساطير الاولين .
وكان له في ارضوليد من اليريا هيكل كبير اقيم بجانبه بناء
فسج المرضى . وكذلك كان له في اثينا هيكل عظيم في سفح
الأكروبول الجنوبي حيث وجد في انقاض ادراج اثرية كتب
فيها شكر المرضى على شفائه اياهم وصفات العلاج الذي استعمل
لهم . واشتهرت أيضاً دينة برغامس في آسيا الصغرى بعبادة اسقيليبس
وكانوا يصورونه قابضاً يده على عصي الثنت عليها حيتان والى جانبه
ديك فالحية رمزاً على تجدد الشباب لانها تلتخ في بعض فصول

السنة . والمعصى او الصولجان رمز على السلاطة . وقال سقراط ان المرضى الذين كانوا ينالون منه نعمة الشفاء كانوا يقدمون له ديكاً فالديك الذي يرى الى جانب صورته يشير الى تقدمه الشكر على حصول البرء . قال ابن القف ان اسقيليس سمي متأهلاً لانه رُفِعَ الى السماء لشرف صناعته بعد ان نشرها في الارض واودعها في اهلها ولم يخرجها منهم فكان اهلها من بعده يهاهدون بعضهم بعضاً ان لا يمكنوا احداً خارجاً عنهم ان يقف على شيء من علم هذه الصناعة بل كانوا يعامونها لاولادهم وكانت المواضع التي يُعَلَّمُ فيها الطب ثلاثة احدها المدينة المعروفة برودس والثاني مدينة قوس والثالث المدينة المعروفة بقيدوس . وان الاطباء الذين كانوا في هذه المدن الثلاث كانوا ايضاً من آل اسقيليس . فلما مضى عدة قرون باد علم الطب من رودس وانطفاً مصباحه من قيدوس ولم يبق من اهلها في قوس الا نفر قليل فكادت هذه الصناعة يزول اسمها ويحى رسمها لولا ان نبغ بقراط بن ارقليدس حفيد

(١) شرح فصول بقراط لابن القف : مجلد ضخيم عليه خط المواظف بالكلدانية وفي اخره : بلغ قراءة على مصنفه فصح وكتبه العبد الفقير يعقوب النصراني الملكي المذهب لنفسه ووافق الفراغ من نسخ هذا الكتاب بعشيه الخميس ثالث عشر شهر رمضان سنة ٦٨٣ هـ

بقراط الاول من آل اسقيلبس فمني يجمع اصول الطب من الهياكل وتدوينها في الصحف وتعليمها للطلبة . ولكي يخرج نفسه من الاثم بنسخ ههد السلف كتب ميثاقاً على كل من يتلقى هذه الصناعة هذه صورته ^{١١} وأقسم بالله رب الحياة والموت وخالق الشفاء وواهب الصحة . وأقسم باسقيلبس وباولياء الله جميعاً لاأخذن المعلمين لي صناعة الطب بمنزلة ابنيهم وأواسيهم وأصلهم عند الحاجة مالي . واعتبر ابناهم بمثابة اخوة لي واعلمهم هذه الصناعة ان احتاجوا بدون اجرة ولا شرط . واشرك بين اولادي واولاد معلمي وتلاميذي في جميع حقوق الصناعة . واحرص على نفع المرضى جهدي بما اتوصل اليه من التدبير . وامتنع عن اجراء كلما يضر فلا اعطي دواءً يسقط الحمل ولا اشير به . واحفظ نفسي على الطهارة والزكاة . واصون ذاتي بالعفاف . ولا ابغ بالاسرار التي اوتن عليها ^{١٢}

وذكر الشيرازي شارح ارجوزة الشيخ الرئيس ترجمة بقراط فقال ^{١٣} تفسير لفظة بقراط مايبك الارواح وانما كان اسمه الاول بقراطيس وكان سابع الاطباء المشهورين من اليونان تعلم العلم من ابيه وجدته وكانت صناعة الطب قبله مخفية يدخرها من يتعلمها وكانت في اهل بيت واحد وهو اول من أحدث البيارستان

وسماهُ اخشندوكين ثم ان الذي جاء بعده سماه بيمارستاناً لان لفظة البيار المرضى وستان الموضع . قال جالينوس كان بقراط اماماً في علوم كثيرة منها علم النجوم والفلسفة والطبيغيات والاهليات ولم يكن له رغبة في الدنيا ولا في خدمة الملوك ولما سمع به ملك الفرس اردشيرماه انفذ اليه مائة قنطار من الذهب على ان يتحوّل اليه فامتنع وأبى ان يقبلها وقال

(١) وفي المقرئى اصدولين . « قال الجوهري في الصحاح » المارستان بيت المرضى معرب عن ابن السكيت . وذكر الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه في كتاب اخبار مصر ان الملك مناقيوش بن اشمون اسد ملوك القبط الاول بارض مصر اول من عمل اليمارستانات لعلاج المرضى . ومناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة احميم وبنى سنترية . وقال زاهد العلماء ابو سعيد منصور بن عيسى اول من اخترع المارستان واوجده بقراط ايوقايدس وذلك انه عمل بالقرب من داره في موضع من بستان كان له مرضعاً مفرداً للمرضى . وجعل فيه خدماً يقومون بمداواتهم وسماه اصدولين اى مجمع المرضى واول من بنى المارستان فى الاسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك فى سنة ٥٨٨ وجعل فى المارستان اطباء واجرى لهم الارزاق واحصر بحبس المجنومين واجرى عليهم وعلى العميان الارزاق . ويطلق العامة الان اسم المارستان على دار المجانين ويخصون دار المرضى بالمستشفى وهو مواد وربما قالوا استبال وهو فى الاصل دار الضيافة . لا تبنى

لست أبيع الفضيلة بالمال . وكان مقبلاً على الاشتغال وكان قليل
 الأكل كثير الصوم يقول انا آكل لأعيش لا أعيش لأكل .
 قال بعض القدماء كان لبقراط ثمانون مصنفاً في الطب ولما
 مات خلف ابنين وبناتاً . قيل كانت اعلم بالطب من اخويها
 ومن اقواله ، كل مرض معروف السبب موجود الشفاء ،
 ولد سنة ٤٦٠ ق م وتوفي على الأرجح سنة ٣٧٧ ق م في
 لاريسا وقد اقيم له نصب من حديد في اثينا كتب عليه ، تذكر
 لبقراط المحسن الينا مخلصنا ، ونسب اليه الذين جاؤا بعده
 مصنفات لم تكن له وحكوا عنه قصصاً عجيبة ولا يبعد ان يكون
 النسخ في عهد الدولة اللاغوسية قد نسبوا اليه من الكتب ما
 لفقوه طمعاً بالربح لان البطالسة كانوا يبذلون الاموال الطائلة في
 شراء الكتب النفيسة واستنساخها وترجمتها فكثير المختالون حينئذ
 وراجت بضاعتهم في تزوير الكتب ونسبتها الى جهابذة المتقدمين
 وقد عني ليتراي اخيراً بجمع مؤلفاته عن الاصل اليوناني
 و ترجمها الى اللغة الفرنسية في عشر مجلدات طبعت مع الاصل
 اليوناني في باريس سنة ١٨٣٩ - ٦١ ٢

(1) Hippocrate, Grande Encyclopédie

(2) Littré: Œuvres d'hyppocrate (Paris, 1839-61) 10 vol
 in-8 avec le texte grec et trad. française